نجحت البعثة العلمية التي يرأسها الدكتور فيشر الألماني المرسلة من كلية بنسلفانيا الأميركية في المهمة التي أخذت على نفسها القيام بها للبحث عن آثار الفراعنة في وادي النيل وكان للبناء الذي تطالت البعثة إلى الحفر عنه هو قصر مرنفتاح الثاني ملك مصر المعروف لورود ذكره في سفر الخروج فكان هذا القصر كبيراً للغاية مزيناً أحسن زينة وقد كان خرب في حريق أصابه فتهدم كثير من أجزائه وإذ عثروا فيه على آثار يونانية فقد استنتجوا أن الحريق لم يحدث إلا في القرن الخامس قبل الميلاد وربما بعد ذلك ولم يثبت إذا كان فرعون هذا قد أنشأ القصر في أيامه ولعله كان ذلك ولكن الثابت أن سكنه على نحو ما كانت عادة الفراعنة في مصر وأنه وسعه وأكمله فإذا كان هو الذي بنى هذا القصر فيرد تاريخه إلى القرن الثالث عشر قبل المسيح ويقول الدكتور فيشر أن طول القصر كان ٣٤ متراً وعمقه فيه ٣٠ غرفة مختلفة الحجم وأعظم قاعاته قاعة العرش طولها ٣٠ متراً بعرض ١٢ يدعم سقفها ست دعائم وتتصل بدهليز فيه ١٢ سارية بديعة وكان منقوشاً أجمل نقش كما تبين ذلك الآن.

والبارز من صوره على غاية من اللطف مموه بالذهب والعرش مع الدرجات التي تؤدي إليه ما زالت بحالها ومن غريب ما وجد فيه أمتعته ومما يدهش له الزائر مجموعة من العاديات قبل التاريخ مثل مدى وسكاكين مختلفة الأجناس ورمايا سهام من الحجر وقدور ومواقد مما استدل منه أن ذلك كان شائعاً في الاستعمال عند المصريين وهذه العاديات تنير تاريخ وادي النيل ويستغرب وجودها في هذا القصر الفرعوني وقد استنتج مكتشف هذا القصر أن فرعون هذا كان جماعة للآثار وأقام في قصره متحفاً تاريخياً حقيقياً.

مخطوطات ومطبوعات

حلية البشر

في تاريخ القرن الثالث عشر

للشيخ عبد الرزاق البيطار الدمشقي

هو مخطوط في تاريخ رجال هذا القرن وقد ورد فيه ذكر بعض الوقائع بالعرض مثل وقعة سليم باشا والي دمشق ووقائع إبراهيم باشا المصري ووقائع احمد باشا الجزار وحادثة الستين وغير ذلك رتبه مؤلفه رحمه الله على حروف المعجم وتعرض لترجمة المشهورين من المسلمين في الشام ومصر والحجاز واليمن والعراق والجزيرة وبعض من لهم شهرة في الطريقة أو الإدارة ومن المشاهير الذين ترجمهم السيد محمد عابدين وإبراهيم باشا ومحمد علي باشا وتوفيق باشا والأمير عبد القادر الحسني والسيد أبو الهدى الرفاعي وعارف حكمت بك ومحمد بن عبد الوهاب وداود باشا وجودت باشا والشهاب المنبي وجمال الدين الأفغاني والشيخ حسن العطار والشهاب محمود الألوسي ومحمود أفندي حمزة والسيد مرتضى الزبيدي وإضرابهم من النابهين وغيرهم كثير من الحاملين.

وقد كان المؤلف رحمه الله عهد إلى حفيده الشيخ محمد بهجت البيطار بأن يبيض ما سوده ويحذف جملاً منه لا يرى لها علاقة بالتاريخ ولا تفيد إلا تكبير حجمه على غير طائل وهو اليوم آخذ النفس بذلك ورجاؤنا أن يتم له ما يريد ويريد الحريصون على تتمة سلسلة تاريخ الرجال في هذه البلاد من طبع هذا السفر إحياء لذكر جده وإفادة للعلم والآداب.

وفي هذا الكتاب وهو على طريقة خليل أفندي المرادي مؤرخ رجال القرن الثاني عشر في الأسجاع إلا قليلاً شيء من شعر المترجمين ونثرهم نموذج من انحطاط الآداب العربية في هذه الحقبة من الزمن وآداب لغتنا من منظومها ومنثورها لم تأخذ بالرقي في الحقيقة إلا

في هذا القرن الرابع عشر وقد نبغ فيه ولاسيما في مصر كتاب وشعراء لم ينبغ أمثالهم إلا في القرون الثلاثة التي سلفت أعادوا اللغة إلى نضارتها في القرون الأولى إذ جمعوا في آثارهم بين رونق المتقدمين وعلم المتأخرين.

إيضاحات

من المسائل السياسية التي جرى تدقيقها بديوان الحرب العرفي المتشكل بعاليه نشره القائد العام بالجيش الرابع طبع بمطبعة طنين في دار السلطنة سنة ١٣٣٤ ص١٢٥.

هو سفر جمع أنباء جمهور من اشتركوا في مسائل سياسية تتعلق بقلب حالة البلاد السورية وحوكموا محكم بإعدام زعمائهم وقد صورت خطوط بعضهم وذكر السبب الداعي إلى عقوبتهم مع صور ما نشره من المناشير السرية والجهرية وقد طبع الكتاب باللغات الثلاث العربية والتركية والإفرنسية ليكون عبرة الحاضر والغابر.

جدول التشكيلات المنكية

هو كراس في ١٦٦صفحة صدر بالتركية من المطبعة العامرة في الأستانة وفيه أسماء الولايات والألوية والاقضية والنواحي العثمانية نع جدول في آخره رتب على حروف الهجاء. وفي هذه الجداول أغلاط مطبعية كثيرة عسى أن تصلح في الطبعة الثانية وأن تزاد معلومات كافية عن كل بلد وقصبة تكون بمثابة معجم معتمد لبلاد السلطنة يعهد إلى جمعه إلى أناس أخصائيين بالجغرافية والتاريخ ممن يكونون درسوا وساحوا وطبقوا العلم على العمل.

إيقاظ الأخوان

لدسائس الأعداء وما يقتضيه حال الزمان

تأليف الشيخ إسماعيل الصفايحي

طبع في المطبعة العسكرية في الأستانة سنة ١٣٣٣ ص١٠٤

مؤلف هذا الكتاب من قضاة تونس سابقاً وقد أجاد في تأليفه هذا فذكر شروط الخلافة واحكمها وخدمة الدولة العلية للإسلام والمسلمين وحملات أعدائها عليها في العصور المتأخرة مستنداً في ذلك إلى التاريخ الصحيح فاستحق الثناء لأريحيته ولبعد نظره وصحة أحكامه وصدق روايته.

نفحة الريحانة

محمد أمين المحبي من علماء دمشق في القرن الحادي عشر ومؤرخيه اشتهر بكتابه في تراجم أهل عصره وهو مطبوع في أربعة مجلدات وقد ترجمه المرادي في كتاب سلك الدرر في أعيان القرن الثاني عشر فقال أنه يتيمة الدهر المفنن المؤرخ الذي بهر العقول بإنشائه البديع ومهر وتفوق في فنون العلم وفاق في صناعة الإنشاء ونظم الشعر وكان يكتب الخط الحسن العجيب وألف مؤلفات حسنة بعد أن جاوز العشرين منها الذيل على ريحانة الشهاب الخفاجي سماه نفحة الريحانة ورشحه طلاء ألحانه والتاريخ لأهل القرن الحادي عشر سماه خلاصة الأثر في تراجم أهل القرن الحادي عشر ترجم فيه زهاء ستة آلاف وهو مشهور والمعول عليه وقصد السبيل فيما في لغة العرب من الدخيل والدر المرصوف في الصنعة والموصوف وكتب حصة على ديوان المتنبي وحاشية على القاموس سماها بالناموس صادفته المنية قبل أن تكتمل وكتاب مالي وديوان شعر وغيرها من درره وغرره وكانت وفاته سنة أحد عسر ومائة وألف قال المرادي وله شعر لطيف وهو مشهور أودع غالبه في نفحته وتاريخه وساق نبذة منه.

وأمامنا الآن نسخة نفيسة من كتاب نفحة الريحانة وهو على نسق ريحانة الخفاجي بسجعها وشعرها توخى فيها المحبي مجاراة الخفاجي والتذيل على ريحانته فجاراه وباراه ولم يقصر عن مداه قال المحبي: وكانت كتاب الريحانة للشهاب الذي أغنى عن الشمس والقمر وأطلع الكلام ألذ من طيب المدام والسمر وناهيك بمن استخدم الألفاظ حتى قيل أنها له ملك ونظمها في أجياد الطروس كأنها جواهر لها كل سطر من سطوره سلك لم أزل من عهد صباي قبل نوم سيادة شبرلي وصباي وهو أمنية رجائي الحائم وبغية قلبي الهائم وشمامتي التي أشتم ومسلاتي متى أهتم وزمزمة لساني وعقيلة استحساني حتى أود لو كانت أعضائي كلها نواظر تبصره بحيث لا تقل لحظاً وخواطر تتذكره على أنه لا تسأم حفظاً والسنة تكرره بشرط أن لا تقنع لفظاً فخطر لي أن أقل في تذييله ذندي وآتي لمحاكاتي بما أجتمع من تلك الأشعار عندي وقصدي بذلك اشغال الفكر لا الانضمام إلى من فاز بأولى الذكر وإلا فمن أنا حتى يقال وإذا عثرت عثرة تقال سيما إذا قرنت بما جاريته في ميدان الكلام أو ضممت إلى من باريته وأنا لست له باري أقلام وإني لو تطاولت إلى الفلك وتناولت عن الملك واتخذت الدراري عقوداً وزهرة المجرة لفظاً معقوداً ما بلغت مكانه لا مكنت من أمر البراعة إمكانه فأقدمت سائلاً من الله أن يجعله سهلاً وأن أستغفره لتطلعي لما لم أكن له أهلاً وسودت أعياناً بيضت بهم وجه الطروس وأحييت لهم أبيات أشعار كادت تشارف الدروس من كل لفظ أرقى من نفحة الزهر في الروض من للناشق وأحسن موقفاً من تبسم المعشوق في وجه العاشق واثبت فيهم بفصول تشهد لهم بالتفضيل وتقضي بأن كل وصف فيهم فضول بالإجمال والتفصيل وإني أحاسب لقلبي إذا مال وللساني إذا قال لا أمدح إلا ممدوحاً ولا أقدح إلا مقدحاً ولا يستفزني وعد كل

سحابة ولا يستخفني طنين كل ذبابة ورقمت من الكلام المصرع والإنشاء السلس المرصع ما استنبطته من ذوات الصدر والمعت به كالقمر ليلة البدر فقر ابتدعتها وسجعتها معاني آداب اخترعتها والمعتها تطرزها الأقلام وترقم بها أردية الكلام ولم أودع إلا ما حسن إيداعه ولطف مساغه وإبداعه وأقنع من القول بطرفه واستجلب من بدائع طرفه إذ لا فخر للأقط تناول كل ساقط. . . . .

وقد رتب كتابه على ثمانية أبواب الباب الأول في محاسن شعراء دمشق ونواحيها الباب الثاني في نوادر أدباء حلب الباب الثالث في نوابغ بلغاء الروم الباب الرابع في ظرائف ظرفاء العراق والجزيرة الباب الخامس في لطائف لطفاء اليمن الباب السادس في عجائب نبغاء الحجاز الباب السابع في غرائب نبهاء مصر الباب الثامن في تحائف أذكياء المغرب وترجم من أدباء دمشق أبا بكر العمري وابراهيم ابن الأكرمي الصالحي ويوسف أبي الفتح والأمير منجك بن محمد المنجكي وعبد اللطيف المنقاري ومحمد الكريمي ومحمد الحريري الحرفوشي ويوسف البديعي ومحمداً الدرا وعبد الباقي السمان وعبد الحي طرز الريحان وابراهيم السؤالاتي وأبا بكر العصفوري ومحمداً المقدسي وتاج الدين المحاسني وعبد اللطيف الجابي ومحمد الزهري ومحمد بن زين العابدين الجوهري ومحمد بن حسين الصالحي وعمر الدويكي وعمر بن محمد الصغير وأحمد الصفدي وزين الدين البصراوي وعبد الرحمن الموصلي ومحمداً الحصري وعبد الرحمن التاجي وشاهين بن فضل الله وابراهيم السفرجلاني وعبد الباقي بن مغيزل وأبا بكر غصين البان وأحمد العطار وسليمان الحموي ومحي الدين السلطي ونجم الدين الغزي وأيوب الخلواتي وابراهيم الفتال وعبد القادر بن عبد الهادي وأحمد بن فرفور ومحمد بن حمزة وفضل الله العمادي

واسمعيل بن عبد الغني النابلسي وغيرهم كثير وفي هذا الكتاب ٣٦٩ ترجمة والأحرى أن يقال ترجمة نثرية شعرية إذ لا يقصد منها التعريف بحقيقة المترجم وأحواله بل وصف أدبه وشعره والمبالغة فيهما وفيه من هذه الوجهة وإلا فقد استوفى المؤلف تراجم من ذكرهم هنا في كتابه خلاصة الأثر حتى لم يبق مجالاً لقائل.

أما طريقته في وصف الرجال فقد سبقه إليها الفتح بن خاقان في قلائد العقيان والثعالبي في يتيمة الدهر والخفاجي في الريحانة وابن معصوم في السلافة وهذا مثال منها قال في التعريف بعبد اللطيف المنقاري وهو مما تفهم منه درجة نثر المؤلف: ماجد استوفى شرف لارومة واستغلق مزية النسبة المرومة فما بات بتكميل النفس وجده وكلفه لأنه أتى الفضل وهو لعمري لا يتكلفه فهو معروف بأصله وفصله مشهود له بنبله وفضله له المقام الأحظى ومعارف التي ملئت سمعاً ولفظاً وهو منذ حلت عنه تمائمه ونيطت عليه هماثمه مخطوب الحظوى عند الأنام حال من الالتفاف في الذروة والسنام تارة يستفيد مني وتارة يستفيد ثنا.

تروى محاسن لفظه وكأنها ... درر وآراء كمثل دراري

ومآثر قد خلدت فكأنها ... غرر وعزم مثل حد غرارٍ

إلى أن فجع به المجد الأثيل وفقد من الدنيا فقد المثيل وله أدب نقده نض ومقتفه غض أخذت كلمه بمجامع القلوب وملك قلمه الغاية من حسن الأسلوب وقد أثبتت له ما تهديه برداً موشى وتستجليه خداً بالقلم الريحاني محشى فمن قوله من قصيدة :

بين حنايا ضلوعي اللهب ... ومن جفوني استهلت السحب

وفي فؤادي عليل ممتزج ... يعاف إلا الديار تقترب

يا بابي اليوم شادن غنج ... يعبث بالقلب وهو ملتهب
يسنح لكم بصفحتي رشا ... والقد أن ماس دونه القضب
ثغر وشاح يزينه هيف ... ليس كخود يزينها القلب
إن لاح في الحي بدر طلعته ... يا برق إلا وفاتك الشنب
تطفو على الثغر من مقبله ... حباب ظلم وحبذا الحبيب أخ

وله من قصيدة رسلها إلى ديار بكر يتشوق بها إلى دمشق ويذكر منتزهاتها

سقى دار سعدى من دمشق غمام ... وحيّا بقاع الغوطتين سلام
وحاد هضاب الصالحية صيب ... له في رياض النيربين ركام
ذكرت الحمى والدار ذكر طريدة ... تذاد كظمآن سلاه أوام
فنحت على تلك الربوع تشوقاً ... كما ناح من فقد الحميم حمام
يا صاحبي نجراي يوم ترحلوا ... وحزن الفلا ما بيننا وأكام
نشدتكما بالود هل جاد بعدنا ... دمشق كأجفاني القراح غمام
وهل غذت البان فيها موايس ... وزهر الربا هل أبرزته كمام
وهل أعشب الروض الدمشقي غبنا ... وهل هب في الوادي السعيد بشام
وهل ربوة الأنس التي شاع ذكرها ... تجول بها الأنهار وهي جمام
وهل شرف الأعلى مطل وقعره ... على المرجة الخضراء فيه كرام
وهل ظل ذاك الدوح ضاف وغصنه ... وريق وبدر الحي فيه يقام
وهل ظبيات في ضمير سوانح ... وعين المها هل قادهن زمام
وهل أموي العلم والدين جامع ... شعائره والذكر فيه يقام

وهل قاسيون قلبه متفطر ... وفيه الرجال الأربعون صيام
ألا ليت شعري هل أبيت بجلق ... وهل لي بوادي النيربين مقام
وهل أردن ماء الجزيرة رائعاً ... بمقصفها والحظ فيه مرام
سلامي على تلك المغاني وأهلها ... وأن ريش لي من نأيهن سهام
لقد جمعت فيها محاسن وأصبحت ... لدرج فخار الشام وهي ختام
بلاد فيها الحصاء درر ... عبير وأنفاس الشمال مدام
وغرقها أضحت بجبهة روضها ... تضئ وخلخال الغدير لزام
تناسيت عنها والفؤاد مشتت ... ووعر الفيافي بيننا ورغام
لقد كنت أقضي من بعادي تشوقاً ... إليها وجسمي قد عراه سقام

وقد ذكر المؤلف زمرة من نوابغ بلغاء الروم قدم لهم مقدمة في وصف الأستانة فقال فيه بأندار خلافتها وأن تباين فيها النسان ففي أهلها حذق لا يعقبه مزية وجدت في نوع الأنسان فسبحان من جعل جبالها السبع بمنزلة الأفلاك مطالع الأضواء ومغارب الأحلاك ومغرد طيور جملة الأملاك وسبب انتظام هذه الأسلاك فسما فيها الفرع السبق والأصل الثابت وطاب لعمري فيها المنبت والنابت كيف وهي حاضرة الدنيا وواحدة المفردة وأثينا ومجمع أهل الفضل تنظمهم في سلك وتزلهم فيما أنالها الله من ملك وملك وقد أمنت بحمد الله من الصايل وحمدت فيها البكر والأصايل ولها الخطوة التامة والمحاسن الخاصة إلى الخيرات العامة مع اللطافة المشربة بالغضارة والطلاقة المسكنة من مفاصل النضارة فهي قيعة الظل الأبرد وكناس الغيد الخرد ومهوى هوى الغيث الهاتن ومأوى اللفظ الساحر واللحظ الفاتن وبها المباني الشم الأنوف والقصور الجمة الحني والشفوف

رياضها وريقة أريضة وأهويتها صحيحة مريضة ومرابعها مراتع النواظر ومطالع المسرات النواضر تصبو النسمات إلى مسارحهاالرحاب وتبكي شوقاً إليها جنود السحاب ولعهدي بها إذ أخذت بدائع زخارفها ونشرت طرائف مطارفها وقد ساقت إليها أرواح الجنائب زقاق خمر السحائب فسقت مروجها مدام الطل فنشأ على أزهارها حباب كاللؤلؤ المنحل هناك رأيت كل شعب يحدث من شعب يران وكل منظر يتجلى عن أشكال من الزهر والألوان.

بسطت فوقه برود ربيع ... عندما زاره وفود الشمائل
خط فيه كتاب توحيد ربي ... نقطة النور والمياه الجداول
فتلته طيوره دراسات ... وأعادته مفصحات المنادل
أغنت السمع عن مراء جدال ... راميات لثقل حمل الدلائل

إلى آخر ما وصف به دار الخلافة العثمانية وقد أورد من أدبائها وشعرهم محمد بن لطف الله وعبد الباقي بن محمد الشهير بعارف والسيد عبد الله المعروف بابن سعدي وعبد اللطيف المعروف بانسي وشيخ الإسلام زكريا بن بيرام وولده شيخ الإسلام يحي وعلياً المعروف برضاي سبط المفتي زكريا ومحمد بن بستان المفتي وشيخ الأسلام أسعد بن سعد الدين محمداً البهائي وحسين ابن محمود المعروف باخي زاده وعبد الرحمن بن حسام المفتي وفيض الله بن القاق وعماد الدين بن أحمد طاش كبري قاضي العسكر والنقباء والأجلاء. وفي تراجم الشعراء وقصائدهم ورسائلهم التي أوردها الشاميين والحلبيين والعراقيين والحجازيين والمصريين والمغاربة نموذج صالح فيتصورات تلك الأقاليم وما كان يغلب عليهم وأسلوبهم في غزلهم وأماديحهم وأهاجيهم والغزل كثير وهذا الكتاب ومن الشعر

ما لا تستطيبه النفس وليس فيه من المزايا إلا أنه موزون لكن معناه مبتذل وقد ظهر التكلف بعض الشئ على المؤلف في ترجمة بعض من اوردهم لأنهم ليسوا في الدرجة المطلوبة من الفضل والأدب وأنما أضطرت الحال إلى التعرض لهم والثناء عليهم ولو كان اقتصر على المبرزين في عصره في الأدب والشعر على قلتهم لجاء كتابهم امتع وانفع فيما نرى وما نظن بعض الشعر الذي اورده في كتابه فكبرفيه حجمه وهو يرضى عنه وعن مثله.

وهاك نموذجاً آخر من نثر المؤلف وشعره فمن فصوله القصار ذكرها في خاتمة كتابه قوله: في الأحاديث صحيح وسقيم ومن التراكيب منتج وعقيم للنفوس صبابة بالغرائب وإن لم يكن من الأطايب الروض إن لم يشكر الغمام بعرفه ففي وجهه شاهد من عرفه شفاعة اللسان افضل من زكاة الأنسان. ليست الأذناب كالأعراف ولا الأنذال كالأشراف إذا صحبت فأصحب الأشراف تتل الشريف فإن المضاف يكتسب من المضاف إليه التنكير والتعريف السلعة على قدر الثمن والحركة على قدر تنشيط الزمن أعمار الكرام مشاهرة وأعمار اللئام مداهرة. أعجب الأشياء فاسق يبحث في الحلال والحرام وآلمها للقلب جالسة اللئام للكرام. مثل ما يروج من الأشعار عند من لا يدري ميزان الأشعارمثل الأعاريب لم يروا خبز الحنطة فيكبرون خبز الشعير والقوم لم يروا لجة البحر فهم يعظمون ماء الغدير.

وقال من أرجوزة له في الأمثال:

إن اللبيب يعرف المزايا ... وكم خبايا لحن في الزوايا

ورب جاهل لقد تعلما ... لا ييأسن نائم ان يغنما

من غنم الفرصة أدرك المنى ... ما فاز بالكرم سوى الذي جنا
الناس أخوان وشتى في الشيم ... وكلهم يجمعهم بيت الأدم
فالبعض منها كالغذاء النافع ... والبعض كالسم الزعاف الناقع
وهكذا بعض الذوات روح ... والبعض منها في الحشا قروح
ورب شخص حسن في الخلق ... وهو أشد من شجى في الحلق
والدهر صرافله تصريف ... يروج فيه النقد والزيوف
لذاك ضاعت خلص الأحرار ... كضيعة المصباح في النهار
تعادل الفاضل والمفضول ... عرفنا الفضل من الفضول

ومنها:

والناس إن سألتهم فضل القرب ... حاولت أن تجني من الشرك العنب
هذا زمان الشح والأقتار ... مضى زمان الجود والأيثار
من كلف النفوس ضد طبعها ... أعيا مما لا يرتجى من نفعها
وإن من خص لئيماً بندى ... كان كمن ربى لحتف أسدا
قد يبلغون رتباً في الدنيا ... لكنهم لا يبلغون العليا
إن المعالي صعبة المراقي ... من دونها الأرواح في التراقي
لا تستوي في الراحة الأنامل ... ورب مأمول علاه الآمل
قد تورد الأقدار ثم تصدر ... وتدبر الأقمار ثم تبدو
بالجود يرقى المرء مرقى الحمد ... أن السخاء سلم للمجد
وعوذ النعما من الزوال ... بكثرة الأحسان والنوال

يضوع عرف العرف عند الحر ... وأنه يضيع عند الغمر

ومن شعره:

مذ قعقعت عمد للحي وانتجعت ... كرام قطانه لم ألق من سند

مضى الأولى كنت أخشي أن يلمّ بهم ... ريب الزمان فلا أخشى على أحد

فأفرخ الروع إذا شالت نعائهم ... وافسد الدهر منهم بيضة البلد

ومن قوله:

نفر في الدين مذ عبثوا ... بعدوا من خيره الزاهي

فهم ما بين أظهرنا ... ففض من لعنة الله

روي عن عائشة رضي الله عنها وعن أبيها أنها قالت لمروان الت فضض من لعنة الله

وقوله:

أرى جسمي تحط به البلايا ... وما شارفت معترك المنايا

فإن ابقاني المولى فأرجو ... بقايا منه في عمري نقايا

معترك المنايا هو بين الستين والسبعين من سن أعمار الناس لأن النبي صلي الله عليه وسلم قال اكثر اعمار امتي ما بين الستين والسبعين.

وقوله:

من رام من حساده نصرة ... كان كمن بالنار يطفي الأنوار

عين أصابت شملنا لا رأت ... شملاً على طول المدى يجمع

كنت مستأنساً إلى كل شخص ... فأنا الآن نافر من كل شخص

هذه نموذجات من نفحة الريحانة وهو في ٦٣٠صفحة كبيرة علقت غليها حواشٍ لغوية وتاريخية جليلةفي ترجمة رجال النفحة ملخصة على الأغلب من خلاصة الأثر للمؤلف نفسه والنسخة التي تكلمنا عليها كتبها محمد بن الحاج باكير الحلبي الدمشقي سنة ١١٤٨وهي بخط مشرق جميل وعلى ورق ثقيل وبلغنا أن منه نسختين في بعض خزائن كتب دمشق الخاصة إذا صحت نية أحد على طبعه وجب عليه أن يرجع اليهما ويعتمد هذه النسخة لأنها صحيحة وقعت بيد عارف في الأدب واللغة فخدمها خدمة تليق بها.

تفاضل الشعراء

وللزنبور والبازي جميعاً ... لدى الطيران وأجنحةٌ وخفق

ولكن بينما يصطاد بازٍ ... وما يصطاده الزنبور فرق

(لأحدهم)

مما لا يختلف به أثنان أن الشعراء يفضل بعضهم بعضاً كما تفضل الأصابع بعضها بعضاً. (فمنهم) من غاص في بحار التصورات وكان في عالم الأوهام فأدنى ذلك البعيد وصاغه بقالب الحقيقة لقربه من الأفهام.

(ومنهم) من وصف ما هو منه أدنى من حبل الوريد. ولم يكن في نظمه غيرأوزانٍ وتقاطيع تسمع في نقر النحاس وطنين الأجراس ما هو أوقع منها في النفوس. بل ربما كان في تصويت الذباب إيقاع وتأثيرليسا فيها ولذلك قال بعضهم مفتخراً:

ولا تحسبن أنّ بالشعر مثلنا ستصير ... فللدجاجة ريشٌ لكنها لا تطير

وقال الأمير علم الدين أيدمر الحيوي:

فإن لم يكن نظم القصائد شيتي ... وليس جدودي يعربٌ وأياد

فقد تسجع الورقاء وهي حمامة ... وقد تنطق الأوتار وهي جماد

وقال الشيخ ناصيف يازجي:

من ضاع أكثر شعره في باطلٍ ... فكأنما قد ضاع أكثر

(ويتفاضل الشعراء) بصور الخيال وجودة القريحة وصفاء الذهن والسواعي التي تحدث لكل منهم إذ للأحوال أسباب تحمل على الأجادة والأبتكار ومع هذا قد يخطئ من أجمع العلماء على مدحه واستحسان منظومه.

فهذا عبد الله بن المعتزّ مع اشتهاره بانسجام أبياته وصحة معانيه قد قال في وصف كتاب:

ودونكه موشى نمنمته ... وحاكته الأنامل أيّ حوك

بشكل يرفع الأشكال منه ... كانّ سطوره أغصان شوك

فأخطأ الغرض إذ جعل سطور الكتاب شوكاً والشوك يذمّ ولا يمدح. وإن كان بينه وبين الشكل مشابهة وأين هذا من قول ابن قرناص:

هو مالك قد أصبحت ألفاظه ... حلياً على جيد الزمان العاطل

وكانّ أسطره خلال دروجه ... ظلّ النصون ينوح بين جداول

ومن قول الشيخ عبد الغني النابلسي على التشبيه:

ولم تلهني كتب الرياض وقد حوت ... حروف غصونٍ للندى فوقها نقط

ومدت من الأوراق جعد ذوائب ... كأن انعطافات النسيم لها مشط

وقال أبي تمام الطائي:

فإذا كتابك قد تخير لفظه ... إذا كتابي ليس بالمتخير

وإذا رسومٌ في كتابك لم تدع ... شكاً لنظارٍ ولا متفكر

شكل ونقطٌ لايخيل كأنه ... الخيلان لاحت بين تلك الأسطر

وقد يجيد شاعر ولا يجيد الآخرقال الهيثم بن عديّ لقوم: أنشدوني أحسن بيت وصفت به الثريا فقيل بيت الزبير الأسدي وهو:

وقد لاح في الغور الثريا كأنما ... به راية بيضاء تخفق للطعن

فقال: أريد أحسن من هذا فقيل بيت امرئ القيس:

إذا ما الثريّا في السماء تعرّضت ... تعرض أثناء الرشاح المفصّل

فقال: أريد أحسن من هذا فقيل بيت ابن الطثرية:

إذا ما الثريّا في السماء كأنها ... جمانٌ وهي من سلكه فتسرعا

فقال: أريد أحسن من هذا فقالوا ما عندنا شئ. فقال: قول أبي قيس بن الأسلت الجاهلي:

وقد لاح في الصبح الثريّا لمن رأى ... كعنقود ملاحيةٍ حين نورّا

قال: فحكم له بالتقدم عليهم في هذين المعنيين

وقال الشيخ أحمد المقري في كتابه (نفح الطيب في تاريخ الأندلس الرطيب) في مناظرة فضل فيها شعراء الأندلس ما نصه:

وهل منكم شاعرٌ رأى أن الناس قد ضجوا من سماع تشبيه الثغر بالأقاح وتشبيه الزهر بالنجوم والخدود بالشقائق فتلطف لذلك في أن يأتي به في مترع يصير خلقه في الأسماع جديداً. وكليله في الأفكار حديداً. فأغرب أحسن أغراب. وأعرب عن فهمه بحسن تخيله انبل أعراب. وهو ابن الزقاق:

واغيدٍ طاف بالكؤوس ضحى ... وحثها والصباح قد وضحا

والروض أهدى لنا شقائقه ... وآسه العنبري قد نفحا

قلنا:

ولأين الأقاح قال لنا: ... أودعته ثغر من سقى القدحا
فظلّ ساقي الدام يجحد ما ... قال فلما تبسم أفتضحا

وقال أيضاً:

أديرها على الروض الندى ... وحكم الصبح في الظلماء ماض
وكاس الراح تنظر عن حبابٍ ... ينوب لنا عن الحدق المراض
وما غربت نجوم الأفق لكن ... نقلن من السماء إلى الرياض

وقال أيضاً:

ورياض من الشقائق أضحت ... يتهادى لها نسيم الرياح
زرقها والغمام يجلد منها ... زهرات تروق لون الراح
قلت: ما ذنبها فقال مجيباً: ... سرقت حمرة الخدود الملاح

قال المقري: فانظر كيف زاحم بهذا الأختيال المخترعينوكيف سابق بهذا اللفظ المبتدعين أ. هـ وسمع بعضهم قول القائل:

فلا تحقرنّ عدواً رماك ... وإن كان في ساعديه قصر
فإن السيوف تحزّ الرقاب ... وتعجز عما تنال الإبر

فقال: هذا حسن جيد. ولكن قول القسطليّ أفضل. وهو:

أثرني لكشف الخطب والخطب مشكلٌ ... وكلني لليث الغاب وهو هصور
فقد تخفض الأسماء وهي سواكنٌ ... ويعمل في الفعل الصريح ضمير

وتنبو الرّدينيات والطول وافرٌ ... ويبعد وقع السهم وهو قصير

ومن ذلك أن عمر بن الشهيد أنشد المعتصم من قصيدة قوله:

سبط البنان كأن كلّ غمامةٍ ... قد ركبت في راحتيه أناملا

لا عيش إلاّ حيث كنت وإنما ... تمضي ليالي العمر بعدك باطلا

فالتفت المعتصم إلى من حضر من الشعراء وقال لهم: هل فيكم من يحسن أن يخلب العقول بمثل هذا؟. فقال أبو جعفر الخرّازالبطوني: نعم. ولكن للسعادة هبات وقد أنشدت قبل هذا أبياتاً أقول منها:

وما زلت أجني منك والدهر ممحلٌ ... ولا ثمرٌ يجنى ولا الزرع يحصد

ثمار ايادٍ دانيات قطوفها ... لأغصانها ظلٌ عليّ ممدّد

يرى جارياً ماء المكارم تحتها ... وأطيار شكري فوقهنّ تغرد

فأرتاح المعتصم وقال: أأنت أنشدتني هذا؟ قال: نعم. قال: والله كأنها ما مرّت بسمعي إلى الآن. صدقت للسعد هبات. ونحن نجيزك عليها بجائزتين. الأولى لها. زالثانية لمطل راجيها. وغمط إحسانها (اه)

و (من ذلك) أن أعربياً دخل على ثعلب وقال: أنت الذي تزعم أنك أعلم الناس بالأدب. فقال. كذا يزعمون فقال أنشدني أرق بيت قالته العرب سلسلة فقال: قول جرير

إن العيون التي في طرفها حورٌ ... قتلننا ثم لم يحين قتلانا

يصر عن ذا اللب حتى لا حراك به ... وهنّ أضعف خلق الله أنسانا

فقال: هذا الشعر غث رث قد لاكته للسفلة بألسنتها. هات غيره فقال ثعلب: أفدنا من عندك يا أعرابي. قال: قول سلم بن الوليد صريع الغواني:

نبارز أبطال الوغى فنبيدهم ... ويقتلنا في السلم لحظ الكراعب

وليس سهام الحرب تفني نفوسنا ... ولكن سهامٌ فوّقت بالحواجب

فقال ثعلب لأصحابه: أكتبوها على الحناجر ولو بالخناجر

(ومن ذلك) قول الشاعر المخزومي:

العيب في الخامل المغمور مغمور ... وعيب ذي الشرف المذكور مذكور

كفوفة الظفر تخفى من حقارتها ... ومثلهافي سواد العين مشهور

فقال آخر بمعناه:

قد تخفض الرجل الرفيع دقيقةٌ ... في السهو فيها للوضيع معاذر

فكبائر الرجل الصغير صغائر ... وصغائر الرجل الكبير كبائر

وقال الخفاجي:

كم من عيوبٍ لفتىً عدّها ... سواه زيناً حسن الصنع

فتكتهُ الياقوتُ مذمومةٌ ... وهي التي تحمد في الجزع

وربما جاء الشاعر بمعنيين أحدهما يفضل الآخر كثيراً كقول بشار بن برد:

إنما عظم سليمى حبّتي ... قصب السكر لا عظم الجمل

وقال بشار نفسهفي موضع آخر بالمعنى نفسه وهو بليغ:

إذا قامت لحاجتها تثنت ... كأن عظامها من خيزران

فأنظر الفرق بين قوليه والتفاوت بين خياليه ومن أعجب ما يروى عن بشار هذا أنه سمع قول كثير بن عبد الرحمن:

ألا إنما ليلى عصا خيزرانة ... إذا غمزوها بالأكف تلين

فقال: قاتل الله أبا صخر يزعم أنها عصا ويعتذر أنها خيزرانة ولو قال عصا مخ. أو عصا زبد لكان قد هجن مع ذكر العصا فهلا قال كما قالت:

ودمجاء واضاجرمن معدٍ ... كأن حديثها ثمر الجنان

إذا قامت لحاجتها تثنت ... كأن عظامها من خيزران

ومن المعاني ما يفضل بعضه بعضاً بدرجات كثيرة مثل قول بشاربن بردالآنف ذكره:

وإذا أدنيت منها بصلاً ... غلب المسك على ريح البصل

فأساء تخييلاً ولعله أكل البصل فكل ذهنه ولم يتصور ألا ما أكله أين هذا من قول المتنبي:

تحمل المسك عن غدائرها الريح ... وتفترّعن شنيبٍ برود

ومن تفاضل الشعراء ما رواه الهيثم بن عدي قال: كنا جلوساً عند صالح ابن حسان فقال لنا أنشدوني بيتاً في امرأة خفرة شريفة فقلنا قول حاتم.

يضئ بها البيت الظليل خصاصة ... إذا هي يوماً حاولت أن تبسما

فقل: هذه من الأصنام أريد أحسن من هذا فقلنا: قول الاعشى:

كأن مشيتها من بيت جارتها ... كرّ السحابة لا ريث ولا عجل

فقال هذه خراجة ولاجة كثيرة الأختلاف فقلنا ما عندنا شئ فقال: قول أبي قيس بن الأسلت:

ويكرمها جاراتها فيزرنها ... وتعتلّ عن أتيانهنّ فتعذر

وليس لها أن تستهين بجارة ... ولكنا منهنّ تحيا وتحفز

وكثيراً ما يختلف حكم الشعراء في أمرين أو أكثر مثل قول ابن الرومي:

أن يخدم القلم السيف التي خضعت ... له الرقاب ودانت خوفه الأمم

فالموت والموت لا شئ يعادله ... ما زال يتبع ما يجري به القلم

كذا قضى الله في الأقلام مذ بريت ... أن السيوف لها مذ أن أرهفت خدم

وقال في ضد هذا أبو الطيب المتنبي:

حتى رجعت وأقلامي قوائل لي ... المجد للسيفّ ليس المجد للقلم

وقال في مثل ذلك أبو تمام الطائي:

السيف أصدق أنباءً من الكتب ... في حده الدّ بين الجدّ واللعب

ولقي خالد الكاتب أمد طلبة المبرد فقال له: ما الذي أنشدكم اليوم؟

قال: أنشدنا:

أعار الغيث نائله ... إذا ما ماؤه نفدا

وأن أسدٌ شكى جبناً ... أعار فؤاده الأسدا

فقال خالد أخطأ القائل هذا الشعر. قال كيف قال خالد ألا تعلم انه إذا أعار الغيث نائله بقي بلا نائل وإذا أعار الأسد فؤاده بقي بلا فؤاد قال الطالب: فكيف كان يقول؟ قال :

علم الغيث الندى حق إذا ... ما حكاه علم البأس الأسد

فله الغيث مقرٌ بالندى ... وله الليث مقرٌ بالجلد

وأجتمع أبو العتاهية مع محمد بن مناذر فقال له: كم تنظم من الشعر في اليوم؟ فقال له: لا أنظم القصيد إلا في الشهر أو الشهرين فقال له أبو العتاهية: أما أنا فقد يتفق لي في اليوم من النظم الألف فأكثر فقال له نعم أنت تنظم ذلك ولكنك تنظم مثل قولك:

ألا يا عتبة الساعة ... أموت الساعة الساعة

وقولك:

أترانى يا عتاهي ... ناسياً تلك اللاهي

أما أنا فأنظم مثل قولي في رثاء عبد المجيد الثقفي:

إن عبد المجيد يوم تولى ... هدّ ركناً ما كان بالمهدود

ما درى النعش لا ولا حامليه ... ما على النعش من عفافٍ وجود

ويظهر تفاضل الشعراء في باب (المآخذ الشعرية) حتى أن الآخذ ربما أجاد وزاد على المأخوذ منه وربما قصر وتأخر منه ولقد نشرت في بعض المجلات كثيراً من المآخذ الشعرية ولا سيما الشعراء بعضهم عن بعض وفي ذلك مسرح لخيال الشعراء ومجال لأحكام أفكارهم الدقيقة في التفاضل وإليك والآن بعض ما صرح به بعض المدققين من هذه المآخذ أوعن لنا قال المجي في خلاصة الأثر: أن قول لطفي بن المنقار الدمشقي:

ظعنّ والقلب في ركائبهم ... يخفق والجسم للضنى نهب

من فوق خلي وضعت يدي ... فلم أجده وصدها اللهب

هو أدق من قول المتنبي:

ظلت بها تنطوي على كبدٍ ... نضيجةٍ فوق خلبها يدها

وقال أبو العلاء المعري:

يُنا في أبن أدم حال الغصون ... فهاتيك أجنت وهذا جنا

تغير حناؤه شيبه ... فهل غير الظهر لما أنحنى

فأخذه الآخر وتصرف بمعناه بحسب خياله فقال وقد أخرجه مخرج الحكمة وأجاد حتى فضل الأول رشاقة:

يا من يدلس بالخضاب مشيبه ... إن المدلس لايزال مريبا

هب ياسمين الشيب عاد بنفسجاً ... أيعود عرجون القوام قضيبا

ومن أبيات الحماسة في هذا الباب قول أحدهم:

أن يسمعوا ريبةً طاروا بها فرحاً ... مني وما سمعوا من صالح دفنوا

صمٌ إذا سمعوا خيرًا ذكرت به ... وإن ذكرت بسوءٍعندهم أذنوا

جهلاً عليّو جبناً عن عدوهم ... لبئست الخلّتان الجهل والجبن

ومنه تناول القائل قوله (ولي إذن عن الفحشاء صماً) والآخر (إذن الكرام من الفحشاء صماء) ولكن بعضهم زاد على المعنى فقال وله الفضل بالسبق في التقسيم:

مستنجدٌ بجميل الصبر مكتئب ... على بني زمن أفعالهم عجب

أن يسمعوا الخير أخفوه وإن سمعوا ... شراً لشاعوا وإن لم يسمعوا كذبوا

إلى غير ذلك ما يدل على تفاضل الخيال وتفاوت التصور ويرجع إلى جودة القريحة وصفاء الذهن وفوق كل ذي علم عليم.

(زحلة)

عيسى اسكندر المعلوف

البيزرة وكتاب فيها